﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾

[الشّورى: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذِكْرُ حالِ المشركينَ عندَ العرضِ على النّارِ بعدَ ذِكْرِ رؤيتِهم لها

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنّ الذين يظلمون النّاسَ ويبغون في الأرض بغير الحقّ لهم عذابٌ أليم على ما اجترحوا منَ البغي والعُدوان، وأنّهم حين يرون العذاب يومَ القيامة يطلبون الرّجوع إلى الدّنيا؛ بيّنت هذه الآيةُ حالَهم عندما يُعرَضون على النّار، بأنّهم خاشعون أذلاّءُ ينظرون من طرف خَفِيّ، وأهلُ الإيمان يقولون: إنّ الكافرين لفي خسران مبين؛ لأنّهم أضاعوا النّفس والأهل[1].

ومنها: لمّا ذكرَ ﷺ رؤيةَ المشركينَ للعذابِ؛ عقَّبَهُ بذِكْرِ حالِهم حينَ يُعرَضونَ على النّارِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُعۡرَضُونَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الطّولِ[3]، وأصلُه أن يُقال في الأجسام، ثمّ يُستعمل في غيرها؛ قال تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فصّلت: 51]، ويُطلق على اتّساعِ ما يواجهُ النّاظرَ مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أعرضَ الشَّيءُ، أي: بدا عَرْضُهُ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، أي: أظهرتُهُ لهُ،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 26/ 149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 80، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عرض).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (عرض).

وأبرزتُهُ إليه، كأنِّي في ذاكَ قد أريتُهُ عَرْضَهُ[1]، ويُستعمَلُ في إظهارِ شيءٍ لِمَنْ يراهُ لترغيبٍ أو لتحذيرٍ، ومِنْ إطلاقاتِهِ قولُهم: عُرِضَ الأسرَى على الأميرِ، وهو إمرارُهم ليرَى رأيَهُ في حالِهم ومعاملتِهم، والمرادُ بالعرضِ هنا: أنَّهُ يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبتُهُ التَّمكُّنُ منهُم والحُكمُ فيهِم، فكأنَّ جهنَّم إذا عُرِضوا عليها تحكمُ بما أعدَّ اللّهُ لهُم مِنْ حريقِها[2].

2) ﴿خَٰشِعِينَ﴾: (خشع) أصلٌ يدلُّ على الذُّلِّ والتَّطامنِ[3]، وانكسارِ النَّفسِ، فيكونُ للمخافةِ، وللمهابةِ، وللطّاعةِ، وللعجزِ عنِ المقاومةِ[4]، يقالُ: خشعَ، إذا تطامنَ وطأطأ رأسَهُ[5]، وخشعَ ببصرِهِ: غضَّهُ[6]؛ لأنّ أكثر ما يُستعمل الخشوعُ فيما يوجد على الجوارح، والمرادُ بالخشوعِ هنا: الانكسارُ والتَّواضعُ[7].

3) ﴿ٱلذُّلِّ﴾: ما كان عن قهر؛ يُقال: ذَلَّ يذل ذُلًّا، وهو في أصله يدلُّ على الخضوعِ والاستكانةِ، واللِّينِ[8]، ومِنْ ذلكَ يُقالُ: ذلَّتِ الدّابَّةُ تَذِلُّ ذلًّا، فهي ذَلولٌ[9]، والذُّلُّ: ضدُّ العِزِّ[10]، وهو المرادُ هنا.

4) ﴿طَرْفٍ﴾: (طرف) أصلٌ يدلُّ على تحريكِ الجفونِ في النَّظرِ[11]، فالطَّرْفُ: أصلُهُ مصدرٌ، وهو تحريكُ جَفْنِ العينِ، يقالُ: طَرَفَ، أي: حرَّكَ جَفْنَهُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، ولذلكَ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ[12]، والمرادُ بهِ هنا: حركةُ العينِ[13].

5) ﴿خَفِيٍّ﴾: (خفي) أصلٌ يدلُّ على السَّتْرِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى،

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عرض).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (خشع).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (خشع).
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذلل).
(9) الخليل، العين: (ذلل).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (ذلل).
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (طرف)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

وأخفيتُهُ[1]، والخِفاءُ: ما يُستَرُ بهِ؛ كالغِطاءِ[2]، والاستخفاءُ: طلبُ الإخفاءِ، والمرادُ بكونِ النَّظرِ خفيًّا هنا: أنَّهُ لا حِدَّةَ لهُ، فهو كمسارقةِ النَّظرِ، وذلكَ مِنْ هَوْلِ ما يرونَهُ مِنَ العذابِ، أو أنَّهُ ذليلٌ، أو أنَّ النّاظرَ لا يفتحُ عينيه، إنَّما ينظرُ ببعضِها[3].

6) ﴿مُّقِيمٍ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على عَزْمٍ أوِ انتصابٍ[4]، ومنهُ قولُهم: قامَ قِيامًا، إذا انتصبَ[5]، والقِيامُ والقِوامُ: اسمٌ لِما يقومُ بهِ الشَّيءُ، أي: يَثْبُتُ، والإقامةُ في المكانِ: الثَّباتُ، ويُعبَّرُ بها عنِ الدَّوامِ[6]، أي: في مكانٍ تدوم إقامتُهم فيه للعذاب، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سـوءُ حـالِ المشركينَ يومَ القيامةِ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن حالٍ آخرَ مِنْ أحوالِ المشركينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وترى أيُّها النّاظر أو يا محمَّدُ؛ الظّالمينَ يُمَرُّ بهم على النّارِ خاضعينَ متذلِّلينَ، ينظرونَ مِنْ طَرْفٍ ذليلٍ، أو ضعيفٍ، أو لا ينظرونَ نظرًا كاملًا مِنْ شدَّةِ الانكسارِ، إنَّما ينظرونَ ببعضِ أعيُنِهم، أو يسارقونَ النَّظرَ، ثمّ تَذْكُر الآيةُ ما يقوله المؤمنون فيهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باللّهِ ورُسُلِه: إنَّ المغبونينَ الَّذينَ غَبَنوا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، باختيارِ الكفرِ على الإيمانِ، في عذاب مقيم ثابتٍ لا يزولُ عنهُم[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾:

بيـانُ حـالِ المشركينَ عندَ الدُّنوِّ مِنَ النّارِ

قولُهُ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿وَتَرَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (خفي).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 552، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصَّل: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(6) الرّاغب، المفردات: (قوم).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 552، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 215.

ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشّورى: 44][1]، أو هما معطوفانِ على قولِهِ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّـهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [الشورى: 44][2]، وأصلُ الكلام: والظّالمون لمّا رأوا العذابَ يقولون وهم يُعرضون عليها خاشعين، وبذلك تظهر بلاغةُ العطفِ في أنَّهُ تعالى أثبتَ رؤيتَهم العذابَ، ثمَّ أثبتَ اقترابَهم مِنْ محلِّه، وبيَّنَ حالَهم في ذلكَ الاقترابِ[3].

سرُّ التّعبير بالرّؤية، ودلالةُ تَكرارِها:

هَـــؤُلْ منـظـرِ عـرضِ المشركينَ على النّارِ

آثَر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ بالرّؤية في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ دونَ البصر أوِ النّظر؛ لأنّ المُراد هنا الرّؤيةُ الحِسّيّة مع الإدراك بالتّفكّر والتّعقّل لهذه الحالة التي يُعرضون فيها على النّار، ولأنّها تُفيد الثّبوت؛ فلا مجال للتّشكيك في وقوع هذا المشهد للظّالمين، وأُعيد فعلُ الرّؤية ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ بعدَ تقدُّمِهِ في قولِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الشورى: 44]؛ للاهتمامِ بهذهِ الرُّؤيةِ وتهويلِها[4]؛ لأنَّها رؤيةُ أمرٍ فظيعٍ هائلٍ، وهو عرضُ المشركينَ على النّارِ، وللإشعارِ بأنَّها رؤيةٌ مستقلَّةٌ عن سابقتِها، وذلك يكون دلالةً على تعدّد المواقف؛ فتعدّدتِ الرّؤيةُ لذلك.

تعيينُ المخاطَبِ بـ ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾:

افـتـضـاحُ حـالِ المـشـركـينَ يـومَ القيامةِ

الظّاهرُ أنَّ الخطابَ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ عامٌّ لكلِّ مَنْ يتأتَّى منهُ الرُّؤيةُ[5]، ولكلّ متشوّفٍ إلى العِلْم بحالهم، وفي هذا التَّعميم مبالغةٌ مِنْ حيثُ إنَّهُ يوحي بأنَّ حالَهم قدِ اشتهرَ وذاعَ، بحيثُ لا يخفَى على أحدٍ، ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ للنَّبيِّ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 47.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 51.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 342.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 125.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 35، وأبو موسى، آل حم، ص: 211.

ﷺ وأتباعِهِ[1]، وذلك من باب التّسلية له ﷺ ولأتباعه عندما يرون مشهدَ هؤلاء الظّالمين وهم يُعرضن على النّار.

دلالةُ الإضمار في: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ دونَ الإظهار:

سَبْقُ ذكرهم، والتّهوين من شأنهم

جاء التّعبير القرآنيّ بالإضمار في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ عنِ الظّالمين دونَ ذِكْرهم؛ لسَبْقِ الحديث عنهم في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: 44]؛ فأغنى ذلك عن إعادته، وفيه إشارة إلى التّهوين من شأنهم فليسوا أهلًا للذّكر حتّى مع ظُلْمهم.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾:

استحضارُ صورة رؤيةِ المشركينَ في يوم القيامة

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾؛ لأنَّهُ أمرٌ مستقبلٌ يكونُ يومَ القيامةِ، ولاستحضارِ صورةِ الرُّؤيةِ وكأنَّها تقعُ الآنَ؛ لتفظيعِها وتهويلِها، وفي ذلك توبيخٌ للمشركين، وتحذيرٌ لمن يريد أن يسلك مسلَكهم.

سرُّ التّعبيرِ بالعرْض في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

فَضْحُ الكافرين على رؤوس الأشهاد

عبّر القرآنُ الكريم بالعرض في قوله: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ لِما فيه من معنى الإظهار من باب عرض المتاع، وذلك من باب فضحهم على رؤوس الأشهاد؛ لأنّهم صاروا كالسّلعة المعروضة أمامَ أعين الجميع، وفيه تصويرٌ للمعنى الحسّيّ، وهو إلجاؤهم إلى أن يُحازوا النّارَ بعرضهم الذي يلزم منه المحازاةُ بطولهم، وفي هذا دلالةٌ على التّمكّن منهم؛ فكأنّ جهنّمَ عندما يُعرضون عليها تتحكّم فيهم، بما أعدّ اللّهُ لهم منَ العذاب.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارعِ في: ﴿يُعۡرَضُونَ﴾:

تصويرُ عرضِ المشركينَ على النّارِ وتجدُّدِه

الظّاهرُ أنَّ التّعبيرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾؛ لتصويرِ المشهدِ، وتجليةِ صورةِ المشركينَ في هذهِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 51.

الحالةِ[1]، وزيادةِ ما فيها مِنَ الحركةِ والحيويَّةِ، وكأنَّ المخاطَبَ يراها وهي تقعُ في وقتِ الخطابِ، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التّهديدِ والوعيد، ويحتملُ أنْ يكونَ المُرادُ التَّنبيهَ على تَكرارِ العرضِ وتجدُّدِهِ[2]؛ وذلك لتَعدّد المواقفِ والمشاهد في يوم القيامة.

سرُّ بناءِ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ للمفعولِ:

الاعتبارُ والزَّجرُ بفعلِ العَرْضِ

بُنِيَ فعلُ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ المقصودَ حصولُ الفعلِ، لا تعيينُ فاعلِهِ؛ لأنَّ الاعتبارَ والزَّجرَ والوعيدَ والتَّهديدَ كلُّ ذلكَ ساكنٌ في الفعلِ مِنْ حيثُ هو فعلٌ، وليسَ مِنْ حيثُ فاعلُهُ، والَّذينَ يَعْرِضونَ الكافرينَ على النّارِ همُ الملائكةُ، كما دلَّتْ عليهِ آياتٌ أخرى[3]، وفيه إشارةٌ إلى سلب ذاتيّتهم وشخصيّتهم؛ فهم يُعرضون على جهنّم دونَ رأيٍ لهم أوِ اعتراض؛ لأنّهم سُلبوا ما كانوا يتطاولون به في دُنيا النّاس، وصورتُهم في ذلك صورةُ المُجْرِم الذي يُعرض على القضاء للمحاكمة.

بلاغةُ الحالِ في: ﴿يُعْرَضُونَ﴾:

الرُّؤيةُ منصبَّةٌ على هول أحوالِ المشركينَ

قولُهُ تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ﴾ حالٌ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ[4]، أي: وتراهم حالَ كونِهم يُعرَضونَ عليها... إلخ[5]، وفائدةُ هذهِ الحالِ وما بعدَها بيانُ أنَّ الفعلَ (تراهم) منصبٌّ على هذهِ الأحوالِ المُخيفةِ، وأوَّلُها حالُهم وهم يُعرَضونَ على النّارِ[6].

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿يُعْرَضُونَ﴾:

تَمَكُّنُ النّارِ مِنَ الكافرينَ

تَظْهَر بلاغةُ الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ﴾؛ لأنّ أصلَ العَرْضِ إظهارُ الشَّيءِ وإراءتُهُ للغيرِ، وإطلاقُهُ في قولِهِ تعالى هنا: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ من باب الاستعارةِ؛ حيثُ استُعيرَ لفظُ

(1) أبو موسى، آل حم، ص: 212.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126، وأبو موسى، آل حم، ص: 212.
(4) السَّمين، الدّرّ المصون: 9/ 563، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 622.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(6) أبو موسى، آل حم، ص: 212.

﴿يُعْرَضُونَ﴾ لمعنى المرور؛ أي: تمرُّ بهم مَرًّا عاقبتُهُ التَّمكُّنُ منهُم والحُكمُ فيهِم، فكأنَّ جهنَّم إذا عُرِضوا عليها تَحكُمُ بما أعدَّ اللّهُ لهُم مِنْ حريقِها وعذابِها الشَّديدِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بـ (على) في: ﴿عَلَيْهَا﴾:

لا يخفَى على المشركينَ أهوالُ جهنَّمَ

حرفُ الجرِّ (على) في قولِهِ تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ يدلُّ على الاستعلاءِ، وكأنَّ الكفّارَ عندَ العَرضِ على النّارِ يُعَلَّونَ عليها؛ حيثُ يكونون فوقَها كهيئةِ المُصلي على النّار، وفي ذلك إشارةٌ إلى شدّة رؤيتهم للنّار، بحيثُ لا يخفَى عليهِم هَوْلُها، وفي ذلكَ مِنَ التَّهويلِ والتَّخويفِ ما لا تُحيطُ بهِ العبارةُ.

دلالةُ الإضمارِ في: ﴿عَلَيْهَا﴾:

الضَّميرُ في ﴿عَلَيْهَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ عائدٌ على النّارِ، وعَوْدُهُ عليها معَ أنَّها لم يتقدَّم لها ذِكْرٌ؛ لأنَّهُ يدلُّ عليها قولُهُ: ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [الشّورى: 44][2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ: ﴿عَلَيْهَا﴾ دون (عليه):

جاء التّعبير بقوله: ﴿عَلَيْهَا﴾ دون (عليه) بتأنيث الضّمير؛ لأنَّ ذلكَ العذابَ المرئيَّ هو النّارُ، ولو روعِيَ اللَّفظُ لقيلَ: (عليه)[3].

سرُّ التّعبيرِ بالخشوع ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

أوثرَ التّعبيرُ بالخشوع في قوله: ﴿خَٰشِعِينَ﴾ دون غيره؛ لأنّ الخشوع يظهر أثرُه على الجوارح، كما ورد ذلك في آيات متعدّدة؛ نحو: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ﴾ [طه: 108]، وقال أيضًا: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم: 43]، إلى غير ذلك منَ الآيات التي تُبرِز حالةَ الذّلّ والانكسار، وهذا هو المناسب لمشهد الظّالمين؛ فصَوْتُهم ضعيفٌ، وبصرُهم عليه غشاوةٌ، وهذا هو المرادُ في تصوير هيئتهم في يوم القيامة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 41، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 260.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.

بلاغةُ الحالِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

صَغارُ المشركينَ عندَ العَرْضِ على النّارِ

تظهر بلاغةُ موقع ﴿خَٰشِعِينَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾، في أنّها حالٌ ثانيةٌ مِنْ ضميرِ المفعولِ في ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾[1]، وفي هذا بيانٌ للهيئةِ الَّتي يكونونَ عليها عندَ العرضِ، أي: حالَ كونِهم حقيرينَ مُهانينَ[2]، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على صَغارِهم وسوءِ حالِهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾:

الصَّغارُ ملازمٌ للكافرينَ عندَ العَرْضِ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ﴾؛ للدّلالةِ على ثباتِ وصفِ الخشوعِ لهُم عندَ العَرْضِ، وبيانِ أنَّهُ وصفٌ ملازمٌ لهُم في ذلكَ الحينِ، والمعنى: يُعرَضونَ عليها حالَ كونِهم في غايةِ الضَّعَةِ الثّابتةِ لهُم[3]، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم سببٌ في هذه الهيئة بما قدّموا منَ الظّلم والعدوان على أهل الإيمان، وكأنّهم هم الذين أوجدوا لأنفسهم هذه الهيئة الذّليلة، وفي التّعبير به ملمحٌ نفسيّ لتصوير حالتهم في الدّنيا منَ التّكبّر والاستعلاء؛ فجاء العقاب من جنس ما فعلوا.

نُكْتَةُ التَّقييدِ بـ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾:

الخشوعُ المذمومُ هو ما فيهِ مَهانةٌ لصاحبِهِ

قُيِّدَ الخشوعُ بالذُّلِّ في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ لبيانِ أنَّ المرادَ بهِ الذَّمُّ؛ لأنَّ الخشوعَ هو الاستكانةُ، وهو محمودٌ في الأصلِ[4]، وإنّما أخرجه مخرجَ الذّمّ اقترانُه بالعذاب في الآية.

دلالةُ التّعبيرِ بـ ﴿مِنَ﴾:

خشوعُ المشركينَ ناشئٌ عنِ الذُّلِّ

أوثِرَ التّعبيرُ بـ ﴿مِنَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾؛ لأنّها تعليليّة[5]، تفيدُ تعليلَ الخشوعِ، والمعنى: خاشعينَ بسببِ الذُّلِّ لعِظَمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343، وأبو موسى، آل حم، ص: 212.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 346، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 425، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.

ما لَحِقَهم[1]، وليسَ خشوعُهم لتعظيمِ اللّهِ والاعترافِ لهُ بالعبوديَّةِ؛ لأنَّ ذلكَ الاعتقادَ لم يكنْ مِنْ شأنِهم في الدُّنيا[2].

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلذُّلِّ﴾:

هَـوانُ المشركينَ بعدَ كبريائِهم

(أل) في ﴿ٱلذُّلِّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ للجنسِ، وفي التَّعبيرِ بهِ مبالغةٌ وإيماءٌ إلى كثرةِ ما يَعتري المشركينَ مِنَ الصَّغارِ والهَوانِ بعدَ أنْ كانوا في الدُّنيا بُغاةً ظالمينَ أشدّاءَ[3]، وفي التّعبير بها إشارةٌ إلى أنّهم جمعوا بين الذّلّ الظّاهريّ والباطنيّ؛ مناسبةً لمعصيتهم بالاستكبار.

سِرُّ التّعبير بالذّلّ دونَ الصّغار:

خـضـوعُ أهـلِ النّارِ وانقيادُهم مفروضٌ عليهم بـقـوّة خارجيّة لـتـبـكـيـتـهـم وقهرهم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالذّلّ في قوله تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ دونَ الصَّغار؛ لوجود فرق بينهما؛ فالذّلُّ خضوعٌ وانقياد مفروض بقوّة خارجيّة، وهذا ما يتناسب مع مشهد الظّالمين في يوم القيامة؛ فكما فرضوا سيطرتَهم على النّاس وأذلّوهم، جاء التّعبير من باب الموافقة، وفي ذلك تبكيتٌ للظّالمين، فكما قَهَروا النّاسَ في الدّنيا، قُهِروا في الآخرة؛ بخلاف الصَّغار؛ فهو دلالةٌ على هوان الإنسان وخضوعه برضا نفسه من غير قوّة خارجيّة.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّظرِ:

نـظـرُ المشركينَ عـنـدَ الـعَـرْضِ قليلٌ منكسِرٌ

لمّا كانَ الذُّلُّ ألوانًا، صوِّرَ بأقبحِ صورةٍ في قولِهِ: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، بلفظِ النَّظرِ الَّذي هو مماسَّةُ البصرِ لظاهرِ المُبصَرِ[4]، ففيهِ إيماءٌ إلى أنَّ نظرَهم نظرٌ قليلٌ منكسِرٌ مِنْ شدَّةِ الذُّلِّ، وفي التّعبير به أيضًا إشارةٌ إلى مُجرّد التّحديق بحاسّة الإبصارِ دونَ الإدراك لذات الشّيء، يُؤكّد هذا سياقُ الآية: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/ 50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 212.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343.

نُكْتَةُ التّعبير بالفعليّة ﴿يَنظُرُونَ﴾:

نـظـرُ المشركينَ مستمِرٌّ بصورةٍ قبيحةٍ

جيءَ بصيغةِ الفعليّة في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، دونَ التّعبير بالاسميَّةِ كما في ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ للدِّلالةِ على تكرُّرِ النَّظرِ وتجدُّدِهِ منهُم[1]، ولأنَّ صورةَ النَّظرِ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ مِنْ أحفلِ صوَرِ هذا المشهدِ، ومِنْ أدقِّها، وصيغةُ المضارعِ تُصوِّرُ الملامحَ الخفيَّةَ الخاطفةَ، وتُصوِّرُ حالتَهم الفظيعةَ[2].

بلاغةُ الحالِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

جملةُ ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ ﴿خَٰشِعِينَ﴾؛ لأنَّ النَّظرَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ حالةٌ للخاشعِ الذَّليلِ، والمقصودُ مِنْ ذِكْرِها تصويرُ حالتِهم الفظيعةِ[3].

سرُّ حذفِ مفعولِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

إفادةُ العمومِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتَّعميمِ، وفي هذا دلالةٌ على كثرةِ الأهوالِ التي يشاهدها المشركون؛ فهم ينظرونَ العذابَ، وينظرونَ أهوالَ الحشرِ، وينظرونَ نعيمَ المؤمنينَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ[4]، من باب الحسرة لهم.

سرُّ التّعبير بـ ﴿مِن﴾:

ابـتـداءُ نـظـرِ المشركينَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ

أوثِر التّعبير بـ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ لتَعدّد معناها؛ فتحتمل أن تكون لابتداءِ الغايةِ المجازيِّ، أي: يبتدئُ نظرُهم مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ[5]، ويحتملُ أنْ تكونَ بمعنى الباءِ، أي: ينظرونَ بطَرْفٍ خَفِيٍّ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 343، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(6) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ الطَّرفِ:

الطَّرفُ في الأصلِ: تحريكُ جَفْنِ العينِ، يقالُ: طَرَفَ، إذا حرَّكَ جَفْنَهُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، مِنْ بابِ تسميةِ الشَّيءِ بفعلِهِ[1].

نُكْتَةُ إفرادِ الطَّرْفِ:

المصدرُ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ

الطَّرْفُ أصلُهُ مصدرٌ، وهو تحريكُ جَفْنِ العينِ، ولذلك لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ، وقد يُطلَقُ على العينِ، وجاء مُفردًا في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: 43]، وفي قولِهِ تعالى هنا: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[2].

بلاغةُ الوصفِ بـ ﴿خَفِيٍّ﴾:

نظرُ المشركينَ ذليلٌ مقرونٌ بالمهانةِ والخوفِ وتنكيسِ الرُّؤوسِ

وُصِفَ الطَّرْفُ بالخفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ إمّا لأنَّ نظرَهم ذليلٌ ضعيفٌ مقرونٌ بالمهانةِ، والخفاءُ يستلزمُ الضَّعفَ، فذُكِرَ المَلْزومُ وأُريدَ اللّازمُ، وإمّا لأنَّهُ لا يَبدو نظرُهم؛ فهم ناكِسو الرُّؤوسِ، لا يرفعونَ أبصارَهم للنَّظرِ رفعًا تامًّا، وإمّا لأنَّهم يسارقونَ النَّظرَ إلى النّارِ خوفًا منها، كما ينظرُ المقتولُ إلى السَّيفِ، فلا يَقدِرُ أنْ يملأ عينَهُ منهُ، ولا يفتحُ عينَهُ كما يفعل في نظرِه إلى الشَّيءِ المحبوبِ، إنَّما ينظرُ ببعضِها[3].

بلاغةُ التّعبيرِ بجملة: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾:

تجسيدٌ بارعٌ وتصويرٌ رائعٌ لحالتهم الفظيعة

تظهر بلاغةُ التّعبيرِ في هذه الجملة بأنّها تجسيدٌ بارع وتصوير رائع لحالتهم الفظيعة، لمن يقف أمامَ الموت الذي ينتظره، والسّيف مُسْلَطٌ على رأسه، وهو يحرك الحدقة أو يقلّبها، ويحدُّ النّظرَ بأجفانه، ويُحرِّكُها تحريكًا ضعيفًا خفيًّا يُمَكِّنه من مسارقة النّظر؛ لأنّ مَن ينظر إلى أمر مكروه يحاول أن يُزْوِي ناظرَه عنه، بيدَ أنّه لا يتمالك نفسَه دون أن يَرْمُقَ ما يكرهه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 41، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 45، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 127.

دفعُ توهّم تعارض ظاهرِ هذه الآية، مع ما ورد في سورة الإسراء من أنّهم يحشرون عُميًا:

اختلافُ الموقفين أوِ الجهتين ما بين السّورتين

قد يتوهّم البعضُ وجودَ ما ظاهرُه التّعارضُ بين قوله: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾، وبين ما ورد في سورة الإسراء من أنّهم يُحْشَرون عُميًا؛ قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: 97]؟ والجواب على ذلك: أنّه لا تعارضَ؛ حيثُ يُحمل موضعُ الشّورى على أنّه وصفٌ لهم في ابتداء الموقف، ثمّ بعد ذلك يُجعلون عُميًا، أو أنّ الجهة منفكّة، بأن تكون آية الشّورى في قوم، وآيةُ الإسراء في قوم آخرين[1].

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَقَالَ﴾:

تبشيرُ المؤمنينَ وزَجْرُ الكافرينَ

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، ونُكْتَةُ العطفِ: أنَّهُ سبحانَهُ لمّا وصفَ حالَ الكفّارِ، حكَى ما يقولُهُ المؤمنونَ فيهِم[2]؛ تبشيرًا للمؤمنينَ، وزَجْرًا للكافرينَ[3]، ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، والجملةُ حالٌ مِنْ ضميرِ الغيبةِ في ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾، أي: تراهُم في حالِ الفظاعةِ الملتبسينَ بها، وتراهُم في حالِ سماعِ الكلامِ الذّامِّ لهُم، الصّادرِ مِنَ المؤمنينَ إليهِم في ذلكَ المشهدِ، وحُذِفَتْ (قد) معَ الفعلِ الماضي لظهورِ قرينةِ الحالِ[4].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالماضي في: ﴿وَقَالَ﴾:

خبرُ اللهِ تعالى واقعٌ لا محالةَ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ هذا القولِ، وأنَّهُ سيقعُ يقينًا يومَ القيامةِ؛ لأنَّ ما أخبرَ اللهُ به فهو واقعٌ لا محالةَ، ويحتملُ أن يكونَ القولُ في الدُّنيا، فهو واقعٌ موقعَ اليقين من نفوس المؤمنين، وعلى هذا يكون الماضي على حالِهِ[5].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 181.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 608.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 35، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.

دلالةُ ورود الخطاب في الرّؤية، والغَيبةِ في القول:

معاينةُ العذابِ أدخلُ في التّهويل، ومجيءُ القولِ بالغَيبة على الأصل

ورد الخطاب في الرّؤية في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾، والغَيبةِ في قوله: ﴿وَقَالَ﴾؛ لأنّ معاينة العذابِ لمّا كانت أدخلَ في التّهويل، جُعِل العذابُ قريبًا مشاهدًا، وخُصّوا بالخطاب على سبيل استحضار الحال لمزيد الابتهاج، ولم يكن في الخسران ذلك المعنى؛ لأنّه أمر معقول، والمحسوسات أقوى؛ لاسيما إذا كنّ موجباتِ الخُسران؛ فجيء به على الأصل من الغَيبة[1].

نُكتَةُ التّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإيمانُ سببُ الفلاحِ والنّجاةِ

عُبِّرَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ لمدحِ المؤمنينَ بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنْ صفةِ الإيمانِ، الّتي بها استحقّوا أنْ يكونوا مِنْ أهلِ النّجاةِ والفلاحِ، وأنْ يَحكُموا بالخُسْرانِ على المشركينَ، ويجوز أن يكون التّعبير به إشارةً إلى فئة معينة منَ المؤمنين؛ لاقوا من هؤلاء الظّالمين ما لاقوا منَ العنت والإيذاء؛ فأراد القرآن أن يشفيَ صدورهم منهم.

دلالةُ الماضي في: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

إيمانُ أهلِ الفلاحِ متحقّقٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للتّنبيهِ على تحقُّقِ الإيمانِ مِنَ القائلينَ بهذا القولِ، وللإيماءِ إلى أنّهم قد أوقعوا هذهِ الحقيقةَ، سواءٌ كانَ إيقاعُهم لها في أوّلِ مراتبها أو أعلاها[2].

بلاغةُ التّوكيد في: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

إظهارُ خُسْرانِ الكافرينَ

أكّدَ القرآنُ الكريم خُسرانَ الكافرين بحرف ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لتحقيقِ وقوعها[3]، والعنايةِ بإبرازها ليشفيَ صدورَ المؤمنين في يوم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 25/ 51.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 547.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.

القيامة بمشهد خسارة الكفّار، وفيه دلالةٌ على إبراز سعادة المؤمنين في الآخرةِ، وتوفيقِهم في الدُّنيا، بمشاهدةِ ضدِّ ذلكَ في معانديهم[1].

سرُّ التّعبيرِ بالخسران دونَ غيره:

دلالةُ الخُسران التّوبيخيّةُ لهؤلاء الظّالمين

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الخسران في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ دون غيره؛ لما يحمله من دلالة توبيخيّة لهؤلاء الظّالمين؛ لأنّهم أضاعوا أنفسَهم كما يُضيع التّاجرُ رأسَ مالِه، وهذا دليلٌ على حماقة عقولهم؛ لأنّهم عَرّضوا أنفسَهم للخسارة التي استحقّوا بها العقابَ.

بلاغةُ الإخبار بقول الذين آمنوا:

سرورُ المؤمنِ وغمُّ الكافرِ

الظّاهرُ أنَّ قولَ المؤمنينَ: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ يكونُ بمَسمَعٍ مِنَ الظّالمينَ، فيزيدُ الظّالمينَ تلهيبًا لندامتِهم وخِزْيِهم، فهذا الخبرُ مستعمَلٌ في إظهارِ المَسَرَّةِ بالسَّلامةِ ممّا لَحِقَ الظّالمينَ، أي: قالوهُ تحدُّثًا بالنِّعمةِ، واغتباطًا بالسَّلامةِ، يقولُهُ كلُّ أحدٍ منهُم، أو يقولُهُ بعضُهم لبعضٍ[2].

سرُّ التّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المعرَّفِ ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

كمالُ خُسْرانِ الكافرينَ وثباتُهُ

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ المجموعِ المعرَّفِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾؛ للإشارةِ إلى كمالِ خُسْرانِهم[3]، أي: إنّهم بلغوا في الخسارة مبلغًا كبيرًا؛ فيُعْرَف الخُسران بهم؛ فصار كالعَلَميّة على هؤلاء الظّالمين، ويساعد على ذلك دلالةُ اللّام في قوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ اللّامَ للجنسِ مُرادًا بهِ الفردُ الأكملُ[4]، وفي التّعبير بالاسميّة تنبيهٌ على ثباتِ هذا الخُسْرانِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

خُسرانُ الأنفُسِ والأهْلينَ خُسرانٌ عظيمٌ

جيءَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾؛ للتَّسجيلِ عليهم بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهْلينَ، وذَمِّهم بذلك، وإفادةِ أنَّهم قدِ اشتهروا وعُرِفوا بذلكَ[1].

دلالةُ الماضي في: ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

خُسْرانُ المشركينَ مؤكَّدٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ لتأكيدِ تحقُّقِ هذا الخُسْرانِ ووقوعِه، وفي ذلكَ تقويةٌ للذَّمِّ والتَّوبيخِ، وزيادةٌ للغُمومِ والحَسَراتِ لهؤلاءِ الظّالمين، الذين باعوا أنفسَهم للدّنيا وشهواتِها رغمَ تجدّدِ دعواتِ الأنبياءِ لهم.

بلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

خَيْبةُ أملِ المشركينَ وضلالُ سَعْيِهم

الخُسْرانُ في الأصلِ: تلفُ مالِ التّاجرِ، واستُعيرَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ لانتفاءِ الانتفاعِ بما كانَ صاحبُهُ يُعِدُّهُ للنَّفعِ؛ فإنَّهم كانوا يُؤمِّلونَ نعيمَ أنفُسِهم، والأُنْسَ بأهليهم حيثُما اجتمعوا، فكُشِفَ لهُم في هذا الجمعِ عنِ انتفاءِ الأمرين، أو لأنَّهم كانوا ينكرونَ الحياةَ بعدَ الموتِ، فحَسِبوا أنَّهم لا يَلْقَوْنَ بعدَهُ ألمًا، ولا توحِشُهم فُرقةُ أهليهم، فكُشِفَ لهُم ما خيَّبَ ظنَّهم، فكانوا كالتّاجرِ الَّذي أمَّلَ الرِّبحَ، فأصابَهُ الخُسْرانُ[2]؛ فظهرت بلاغةُ الاستعارةِ في تجسيدِ ضياعِ رأسِ المالِ وعدمِ الانتفاعِ به، وهو عمرُ الإنسانِ، وفيه إشارةٌ لمن له قلبٌ أن يأخذَ العِظَةَ والعِبرةَ من هذه الخسارة.

بلاغةُ الحصرِ في: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾:

لا خُسرانَ فوقَ خُسرانِ الكافرينَ

تعريفُ المسنَدِ إليه والمسندِ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ يُفيدُ القَصْرَ الادِّعائيَّ، حيثُ نُزِّلَ خُسْرانُ غيرِهم منزلةَ عدمِ الخُسْرانِ، والمعنى: لا خُسْرانَ يُشبِهُ خُسْرانَهم[3].

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 128.

سِرُّ التّعبير بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهلِ:

أقبحُ الفَقْدِ فَقْدُ الإنسانِ مَنْ يلوذُ بِهِ

عُبِّرَ بخُسْرانِ الأنفُسِ والأهْلينَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾؛ لأنَّ المشركينَ خَسِروا أنفُسَهم باستحقاقِ العذابِ بسببِ كفرِهم، وخَسِروا أهليهِم؛ لأنَّ الأهلَ إنْ كانوا معَهم في النّارِ فلا انتفاعَ بهِم، وإنْ كانوا في الجنَّةِ فقد حيلَ بينَ الفريقين[1]، وإنْ كانوا في النّارِ ففي الكلامِ إشارةٌ إلى أنَّهم قدوةٌ سيِّئةٌ لأولادِهم؛ لأنَّ أبشعَ ما يكتسبُهُ الولدُ مِنَ الوالدِ هو الانحيازُ للضَّلالِ، ومحاربةُ الحقِّ، وتركُ الدَّليلِ، واتِّباعُ الهوَى[2].

سرُّ التّعبير بيوم القيامة دونَ غيره:

يومُ القيامةِ هو الاسمُ العَلَمُ الذي ينضوي تحتَه بقيّةُ الأسماءِ الدّالّة على ذلك اليوم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بيوم القيامة دون غيره منَ الأسماء؛ لأنّه الاسمُ العَلَم الذي ينضوي تحتَه بقيّةُ الأسماء، ولأنّه يدلّ على معانٍ لا توجد في غيره؛ فهو يدلّ على قيام النّاس من قبورهم لربّ العالَمين، وهو اليوم الذي تُنْصَبُ فيه الموازينُ لإقامة العَدْل بين الخَلْق جميعًا، وهو اليوم الذي تقع فيه المحاجّة والمحاورة بين الظّالمين والمظلومين؛ لذلك كان التّعبير به مناسبًا لهذا السّياق.

سرُّ التَّقييدِ بـ ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾:

اليومُ الآخِرُ هو يومُ الحَسْرةِ والنَّدامةِ

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ إمّا أنْ يتعلَّقَ بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، ويكونَ قولُ المؤمنينَ واقعًا في الدُّنيا، والمعنى: تراهُم يُعرَضونَ على النّارِ خاشعينَ مِنَ الذُّلِّ، وقد صدقَ فيهم قولُ المؤمنينَ في الدُّنيا: إنَّ الخاسرينَ هم الَّذينَ خَسِروا أنفُسَهم وأهليهِم يومَ القيامةِ، وإمّا أنْ يتعلَّقَ بـ ﴿وَقَالَ﴾، أي: يقولونَ يومَ القيامةِ إذا رأوْهم على تلكَ الصِّفةِ:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 344.
(2) أبو موسى، آل حم، ص: 214.

إنَّ الخاسرينَ ... إلخ[1]، وإمّا أنْ يتعلَّقَ بـ ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، والقولُ واقعٌ في القيامةِ، وذِكْرُ القيامةِ للتَّهويلِ، وأنَّ هذا الخَسارَ لا خَسارَ بعدَهُ[2].

سرُّ تقديمِ النّفس على الأهل:

تقديم الأخصّ على الخاصّ

تقديم النّفسِ على الأهل هو من باب تقديم الأخصّ على الخاصّ؛ فمن خَسَر نفسَه – وهي ذاتُه – فخسرانُه غيرَها من بابٍ أولى، ولأنّه بخسارة نفسه كان سببًا لخسارة أهله، وفي الجمع بينهما دلالةٌ على خسرانه لكلّ شيء؛ لذلك كانت صورتهم وهم يُعْرَضون على النّار خاشعين من الذّلّ، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم فقدوا كلّ أسبابِ النّفع، وانقطعت بينهم وبين أهليهم كلُّ الأسباب؛ حيثُ أعرض الجميعُ عنهم، وكانوا يَرجون النّفعَ منهم.

سرُّ فَصْلِ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الإخبارُ بسوءِ مصيرِ الكافرينَ

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لأنّه استئنافٌ يُؤكّد فيه تعالى صِدقَ كلامِ المؤمنينَ[3] وتأكيدَ هلاكِ الظّالمين، ويحتملُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ المؤمنينَ يومئذٍ، حكاهُ اللّهُ عنهُم.

بلاغةُ افتتاحِ الجملةِ بـ: ﴿أَلَآ إِنَّ﴾:

عذابُ الظّالمينَ واقعٌ لا محالةَ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ بـ ﴿أَلَآ﴾ الّتي يُؤتَى بها في أوّلِ الكلامِ الّذي لهُ أهمِّيَّةٌ وشأنٌ، ثمَّ أُعقِبَ بالتّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ لتحقيقِ مضمونِه، وبيانِ أنَّهُ واقعٌ دونَ شكٍّ، وللإشعارِ بلفت انتباه الحاضرين لسماع الحُكْم في الظّالمين، بأنّهم في عذاب مقيم.

بلاغةُ الإظهارِ في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ سببُ العذابِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ألا إنَّهم في عذابٍ مقيمٍ)، لكنْ عُدِلَ إلى

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 231.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 14/ 82، وأبو موسى، آل حم، ص: 214.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 42، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 84.

الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ للتَّنبيهِ على علَّةِ العذابِ، وهي الظُّلمُ المرادُ بهِ الشِّركُ[1]، ولأنَّ الجملةَ تذييلٌ، فيناسبُهُ الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ شأنَ التَّذييلِ أنْ يكونَ مستقلَّ الدّلالةِ على معناهُ؛ لأنَّهُ كالمَثَلِ[2].

سرُّ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المعرَّفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

رُسوخُ المشركينَ في الظُّلمِ

جيءَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ المجموعِ المعرَّفِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ للإشارةِ إلى رُسوخِ الكفرةِ في وصفِ الظُّلمِ، بحيثُ لا ينفكّونَ عنهُ[3]، وفي ذلكَ مبالغةٌ في ذمِّهم، وتأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَ المقيمَ، وكأنّ التّعريف صار بمثابة العلَميّة لهم.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

العذابُ محيطٌ بالكافرينَ

أوثِر التّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾، دون أن يقول: (لهم عذاب مقيم)؛ للدّلالة على أنَّهم غارقونَ في العذابِ، وأنَّ العذابَ صارَ لهُم بمنزلةِ الوعاءِ، وهم كائنونَ فيهِ[4]، فلا ينفكّون عنه، ولا ينفكّ عنهم.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

تنكيرُ ﴿عَذَابٍ﴾ في قولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ لتفخيمِ العذابِ، وتعظيمِ شأنِه، أي: في عذابٍ عظيمِ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُ هَوْلِه، ولا يعلمُ كُنْهَهُ إلّا اللّه.

سرُّ وصفِ العذابِ بـ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

عذابُ المشركينَ دائم لا ينقطعُ

وُصِفَ العذابُ بالإقامةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 258، وأبو موسى، آل حم، ص: 215.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345، والشّربينيّ، السّراج المنير: 3/ 548.
(4) أبو موسى، آل حم، ص: 215.

للدّلالةِ على أنَّهُ دائمٌ لا ينقطعُ[1]، فلذلكَ لا يَفْرُغونَ منهُ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ تهويلٍ لشأنِ هذا العذابِ.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

المشركون همُ المقيمونَ في العذابِ حقيقةً

في قوله تعالى: ﴿عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ مجازٌ عقليٌّ؛ لأنَّ المشركينَ همُ المقيمونَ في العذابِ حقيقةً[3]، وليس العذابُ هو المقيمَ، إنّما أراد المبالغةَ في شدّة عذابهم؛ فليس لهم مكانٌ يقيمون فيه إلّا العذاب.

بلاغةُ التَّذييلِ في جملةِ الفاصلةِ:

عذابُ المشركينَ ألوانٌ وأنواعٌ مختلفةٌ

جملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تذييلٌ للجُمَلِ الَّتي قبلَها، مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [الشّورى: 44] الآياتِ؛ لأنَّ حالةَ كونِهم في عذابٍ مقيمٍ أعمُّ مِنْ حالةِ تلهُّفِهم على أنْ يُرَدّوا إلى الدُّنيا، وذُلِّهم وسماعِهم الذَّمَّ[4]، ويدلّ هذا التّذييلُ على أنّ الكافر والفاسق يدوم عذابُهما، ويدلّ أيضًا على أنّ لفظَ الظّالم إذا أُطلِقَ يكون مخصوصًا بالكفر[5].

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الخشوعُ والخضوعُ والضَّراعةُ:

انكسارُ المشركينَ في أصواتِهم وأبصارِهم

الخضوعُ يكونُ في البدنِ والجوارحِ، والضَّراعةُ تكونُ في القلبِ[6]، والخشوعُ يكونُ في الصَّوتِ والبصرِ[7]، وهو أثرُ انكسارِ النَّفْسِ مِن استسلامٍ واستكانةٍ، فيكونُ للمَخافةِ، وللمَهابةِ، وللطّاعةِ، وللعجز

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 46.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 345.
(3) أبو موسى، آل حم، ص: 215.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 129.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 181.
(6) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خشع).

عنِ المقاومةِ[1]، وقد عُبِّرَ بهِ هنا؛ للتَّنبيهِ على سوءِ حالِ المشركينَ؛ إذ يعتريهِم الانكسارُ في الصَّوتِ والبصرِ.

الخِزْيُ والذُّلُّ:

الخِـزْيُ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ

الفرقُ بينَ الخِزْيِ والذُّلِّ: أنَّ الخِزْيَ ذُلٌّ معَ افتضاحٍ[2]، فيكونُ الذُّلُّ أعمَّ، وقد عُبِّرَ بهِ في الآيةِ لعمومِه، ولأنَّ هيئتَهم - وهي النَّظرُ الخفيُّ والخشوعُ - تفضحُهُم، فيتحقَّقُ الخِزْيُ أيضًا.

الإخفاءُ والإسرارُ:

نـظـرُ المـشـركـيـنَ مقرونٌ بالذُّلِّ

يشتركُ الإخفاءُ والإسرارُ في أنَّ كلًّا منهما يُطلَقُ على سَتْرِ الشَّيءِ، فيقالُ: خَفِيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ[3]، ويقالُ: أسرَرْتُ الشَّيءَ إسرارًا، خلافُ أعلنتُهُ[4]، والسِّرُّ أيضًا الحديثُ المكتومُ في النَّفْسِ[5]، وقد يُطلَقُ الإخفاءُ على إظهارِ الشَّيءِ، تقولُ: خَفَيْتُ الشَّيءَ، إذا أظهرتَهُ[6]، ومَنْ تتبَّعَ مواضعَ استعمالِ الإخفاءِ والإسرارِ في القرآنِ الكريمِ يَلحَظُ أنَّ استعمالَ الإخفاءِ أكثرُ، وقد وُصِفَ الطَّرْفُ بالخفاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ لدلالتِهِ على الضَّعفِ والانكسارِ، كما تقدَّمَ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 126.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 215.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرر).
(5) الرّاغب، المفردات: (سرر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خفي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والخمسون،
سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 53 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-644-66-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 53 : المجلد الثالث والخمسون، سورة الشُّورى من الآية 13 إلى سورة الزُّخرُف الآية 36.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-644-66-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4811073 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"